An-Najah University Journal for Research – B
Humanities
Volume 38 Issue 12, December 2024. (2277 – 2304)

Social, Political, and Administrative Critique in the Poetry of Zayn al-Din Ibn al-Wardi (749 AH)

Raed Abdel Raheem[1,*]

Received: 2nd Sep. 2023, Accepted: 13rd May. 2024, Published: 1st Dec. 2024

ABSTRACT

The poet Zayn al-Din Umar ibn al-Wardi (749 AH) was one of the poets during the early Mamluk era who extensively engaged in social, political, and administrative critique within their poetry. They expressed their personal experiences in these matters, as they were witnesses to the political and social conditions of their society. **Objectives:** This research aims to investigate and clarify the contents contained within them, the poet's methods of expression, and their artistic techniques. **Methodology:** The research follows an inductive, descriptive, and analytical approach, as it has included the poems. **Recommendations:** The research recommends the following: Study of Ibn al-Wardi's poetry included in this research, a comprehensive and integrated artistic study. & Expanding the study of aspects of social, political and administrative criticism in the era of Ibn al-Wardi in general, which is the first Mamluk era.

Keywords: Critique, Mamluk, Social, Political, Administrative.

1 Department of Arabic Language, Faculty of Humanities and Educational Sciences, An-Najah National University, Nablus, Palestine
*Corresponding author: rarrabeh@najah.edu (www.najah.edu)

النّقد الاجتماعيّ والسّياسيّ والإداريّ في شعر زين الدّين بن الورديّ (ت749هـ)

رائد عبد الرحيم[1]،*

تاريخ التسليم: (2023/9/2)، تاريخ القبول: (2024/5/13)، تاريخ النشر: (2024/12/1)

ملخص

الشاعر زين الدين عمر بن الورديّ (ت749هـ) من الشعراء في العصر المملوكيّ الأوّل الذين أكثروا من النّقد الاجتماعيّ، والسّياسيّ، والإداريّ في أشعارهم، وعبّروا عن تجربتهم الخاصّة في ذلك، إذ كان شاهداً على أوضاع مجتمعه السّياسية والاجتماعيّة، وتولّى منصباً في القضاء، فاطّلع على ما فيه، وفي غيره من المناصب من مفاسد، وقدّم في شعره مظاهر مختلفة لذلك. **هدف البحث**: يأتي هذا البحث ليقف على مظاهر النقد الاجتماعي والسياسي والإداري في شعر ابن الوردي، ومضامينها المختلفة، وبعض طرق التعبير عنها، وأساليبه الفنيّة فيها. **منهج البحث:** اتّبع البحث المنهج الاستقرائيّ الوصفيّ التحليليّ، فأتى في منهجه على جميع أشعار ابن الوردي الموجودة في ديوانه، الخاصة بموضوع الدراسة، باستثناء مراثي ابن الوردي في الشيخ ابن تيمية التي تناولت جانباً من النقد الاجتماعي والسياسي لوجود تفصيل لها في دراسات سابقة. **نتائج البحث:** خلص البحث إلى أن ابن الورديّ كان من أكثر شعراء عصره نقداً لأوضاعه السياسية، والاجتماعية، والإدارية. وحفل ديوانه بالأشعار المعبرة عن ذلك، وتنوّعت اتجاهات هذا النقد، ومضامينه، وأساليبه الفنية، فقد نقد السّاسة، وأرباب الدولة في عصره، وبيّن سوء سلوكهم وظلمهم. ونَقَدَ مجتمعه: طوائفه المختلفة، وأخلاق أبنائه، وبيّن صفاتهم السلبية. وكشف عن الفساد الإداري يومذاك، وركّز على الرّشوة، وانتشارها في سبيل الوصول إلى الوظيفة والمنصب. ووظف في ذلك كلّه التناص القرآني، والفنون البديعية، وبخاصة الجناس والتورية، واستحضر التراث، واتّكأ على الصورة الفنية، وأسلوب السخرية. **التّوصيات:** يوصي البحث بالآتي: دراسة شعر ابن الوردي الذي تضمّنه هذا البحث دراسة فنيّة شاملة متكاملة. والتوسّع في دراسة مظاهر النقد الاجتماعي والسياسي والإداري في عصر ابن الوردي بعامة، وهو العصر المملوكي الأول.

الكلمات المفتاحيّة: نقد، مملوكيّ، اجتماعيّ، سياسيّ، إداريّ.

مقدّمة

فقد كثر عدد الأدباء الذين نقدوا المجتمع المملوكيّ، وما فيه من حياة سياسية، وانظمة حكم وإدارة، ووقفوا على جوانب مختلفة من مظالمها ومفاسدها، وقدّموا لذلك مضامين مختلفة، مزجوها

1 قسم اللغة العربية، كلية العلوم الانسانية والتربوية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
*الباحث المراسل: rarrabeh@najah.edu (www.najah.edu)

بأساليب فنيّة متنوّعة من التصوير، والسخرية، والتنّاص، والتجربة الواقعيّة، وغير ذلك، وكان منهم الشاعر زين الدين عمر بن الورديّ ت749هـ الذي حفل ديوانه بنصوص شعرية كثيرة، تنقد المجتمع المملوكيّ، وسياسة حاكميه من المماليك، وفساد الأنظمة الإداريّة فيه. وعلى الرّغم من ذلك، فلم يعثر الباحث على دراسة مستقلّة شاملة، تناولت هذه الأشعار جميعها، وعرضت ما فيها من مضامين مختلفة لتلك الجوانب، ومن هنا جاء البحث ليهدف إلى:

1. حصر النّصوص الشعرية التي نقد فيها ابن الوردي جوانب من الحياة الاجتماعيّة، والسياسيّة، والإدارية فيه.
2. الوقوف على مضامينها المختلفة، وطرق الشاعر في التعبير عنها، لتقديم صورة عن وجهة نظره فيها وموقف بعض أبناء عصره منها
3. جاء البحث ليمزج البحث بين الجانبين المضموني والفنيّ في التحليل، ولا يفرد للدراسة الفنيّة عناوين خاصّة بها، لأنّ ذلك يقتضي إطالة، لا يحتملها المقام.

وعلى الرغم من عدم وجود دراسة علمية شاملة متكاملة في موضوع البحث، إلاّ أن هناك بعض الدراسات السابقة التي يمكن أن يتكئ عليها الباحث في دراسته، ويفيد منها في العرض والتحليل، ومنها:

دراسة رائد عبد الرحيم (1434هـ-2013م)، صور من النقد السياسيّ في أدب العصر المملوكيّ الأول: موقف السلطة من المثقّف انموذجاً، مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ، العدد 84، السنة السابعة والثلاثون. تناول فيها البحث نصوصاً متنوّعة، تنتقد الحياة السياسية في العصر المملوكيّ الأول، وموقف السلطة من المثقّف فيه، ووظّف بعض نصوص ابن الوردي، وبخاصة تلك التي تعبّر عن موقفهم من الشعراء، أو بعض العلماء، وتنتقد سياستهم في ذلك، وقد استثناها البحث في هذه الدراسة، تجنّباً للتّكرار.

دراسة مجتبى كريمي، وآخرون (2016م-1395هـ)، ابن الوردي وموقفه من المجتمع المملوكي في الشام، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية، عدد 39، ص87-101. تناول فيه الباحثون جوانب من الحياة الاجتماعية في حلب في العصر المملوكي من خلال شعر ابن الوردي، ووقفوا على بعض أشعاره التي نقدت مظاهر الظلم والفساد فيه، إلا أنهم لم يأتوا عليها كلّها، ولم يلتزموا بعنوان بحثهم الذي يشي بأنهم سيعرضون ما قدّمه الشاعر من نقد لهذا المجتمع، فجاء مزيجاً بين تصوير المجتمع ونقده. ومع ذلك فهو عمل مفيد، يلتقي في بعض محاوره مع ما يقدّمه البحث موضع الدّراسة سيشير إليها في مكانها فيه.

اتّبع البحث المنهج الاستقرائي، والوصفي، والتحليلي، فوقف عل جميع أشعار ابن الوردي الموجودة في ديوانه جميعها، الخاصة بموضوع الدراسة إلاّ رثاء ابن الوردي الشيخَ ابن تيمية إذ نقد فيه بعض جوانب عصره السياسية والاجتماعية، وذلك لوجود تفصيل لها في دراسات سابقة (انظر عبد الرحيم، رائد، 2003، ص 154، نبريصي، سوسن، 2018م، ص 129 وما بعدها).

وقد انتظم عقد البحث في عناوين على النحو الآتي:

1. نبذة عن حياة ابن الورديّ
2. النّقد الاجتماعيّ في شعره
3. النّقد السّياسيّ
4. النّقد الإداريّ

أوّلاً: نبذة عن حياة الشاعر زين الدين بن الورديّ

ورد في المصادر التي ترجمت له أنّ اسمه عمر بن مظفر بن عمر بن محمّد بن أبي الفوارس (ابن الوردي، 1970، 6/1، الصفدي، 1998م، 677/3، 2001، 46/23)، المعرّي، الحلبي، الشافعيّ، المعروف بزين الدين ابن الورديّ (الصفدي، 200م، 46/23، ابن قاضي شهبة، 1978م، 45/3، الكتبي، 1974م، 175/3، ابن تغري بردي، 1992م، 189/10). ولد في معرّة النعمان سنة 689هـ (ابن الوردي، 1،6/1970، 1986، ص5)، وأورد (ابن الغزي، 1990، 385/4) أنّه ولد سنة 691هـ، وكانت نشأته في مدينة حلب حيث درس وتفقّه، وأخذ علوماً مختلفة عن علمائها (ابن حجر، 1966م، 272/3).

تذكر المصادر أنّه تلقى علومه في مناطق مختلفة من بلاد الشام، ومنها حلب، وحماة، ودمشق (طربوش، مها، 2013، ص11)، فدرس الفقه، والأدب، والنحو، حتى تفوّق فيها، وبرع، وألّف (الصفدي، 2001، 46/23، السيوطي، 1979، 365/2، طربوش، مها، 2013، ص11)، "وأجاد في المنظوم والمنثور" (الصفدي، 2001م، 46/23)، وترك ديوان شعر حوى رسائله ومقاماته وأشعاره (انظر طربوش، مها، 2013، ص14-20)، وكتب إجازة بخطّه، ذكر فيها مؤلفاته، أوردها الصفدي في كتابه أعيان العصر(1998م، 681/3 وما بعدها)، وأشاد نقاد عصره ومؤرخوه بشعره، فقال الصفدي (2001، 46/23): "نظمه جيّد للغاية". ووصفه السّبكي (1906م، 243/6/6)، فقال: "شعره أحلى من السّكر المكرّر، وأغلى قيمة من الجوهر". وحوى شعره موضوعات متنوّعة، مثل المديح، والغزل بنوعيه: المؤنّث والمذكّر، والرثاء، والأحاجي والألغاز، والوصف، والإخوانيات، والنقد الاجتماعي والسّياسيّ، وبعض الفنون المستحدثة، مثل الموشّحات، والدّوبيت، والكان كان. (انظر طربوش، مها، 2013م، ص13).

أما صفاته، فذُكر أنه كان أحد فضلاء عصره (الصفدي، 2001، 46/23، 1998م، 677/3)، وعرف بصلاحه، وحسن خلقه، وورعه، وخوفه الله، ولكنّه كان ساخطّاً على عصره: مجتمعاً، وساسة، وإدارة، فأكثر من نقدهم في شعره. (انظر طربوش، مها، 2013م، ص7).

شغل ابن الوردي غير منصب في عصره، فتولّى تدريس المذهب الشافعيّ في بلده معرّة النعمان، وتخرّج على يديه جماعة من العلماء (ابن الوردي، 1970، 7/1)، واشتغل بالقضاء في حلب، ومنبج، ودمشق (السبكي، 1906م، 243/6، الصفدي، 1998م، 678/3، أبو طربوش،

مها، 2013م، ص10)، ولكنه اعتزل هذه الوظيفة، وصبّ جام غضبه على قضاة عصره، والنظام القضائي فيه.

توفي ابن الوردي في السّابع والعشرين من ذي الحجة من سنة 749هـ في طاعون حلب، وكان قد كتب رسالة فيه قبل وفاته بأيام، أسماها "رسالة النّبا عن الوبا". (الصفدي، 1998م، 679/3، الكتبي، 1974، 160/3، السيوطي، 1979، 365/2).

ثانياً: النّقد الاجتماعيّ في شعر ابن الورديّ

حفل شعر ابن الوردي بنقد مجتمعه في دولة عصر المماليك البحريّة، فوقف على مظاهر الخلل المختلفة فيه، ونقد ما فيه من قيم فاسدة، وسلوك منحرف، وهاجم ما فيه من سوء خلق، وضياع القيم، والأخلاق الرفيعة، ويمكن إجمال ذلك في الآتي:

أ. حال العلماء والفضلاء في مجتمعه

تحدّث ابن الوردي كثيراً عن بعض أحوال العلماء والفضلاء في عصره، أو من يسمّون في عصرنا (الطّبقة المثقّفة)، وبيّن مكانة بعضهم التي آلوا إليها، وما كانوا يتعرّضون له من إهمال، وبؤس، وسوء حال، سواء من رجال الحكم والسياسية أم من عامة الشعب، ويبدو أن الشاعر كان يناله من ذلك نصيب كبير، لذا أكثر من وصف حاله في عصره، متبرّماً من وضعه فيه، ولكنّه كان يتعالى على ذلك، ويبرز ثقته بنفسه، فيكشف عن فضله وعلمه ومنزلته العظيمة، ففي قصيدة مدح فيها الأديبَ الكاتبَ شهاب الدين محموداً الحلبي[1]، وعارض فيها بائية أبي تمّام، وتناصّ مع المتنبي، صوّر ما يعانيه مثقفو عصره، وأدباؤهم، وأهل الفضل والتقوى في مدينتي دمشق وحلب من إهمال، وقلّة احترام، وإذلال، وتراجع مكانة، وهو واحد منهم، ولكنّه يبدو معتدّاً بنفسه، حين أتى بمعان وصور فنيّة تعبّر عن ذلك، فهو وإن انحطّ قدره، فتلك الشّمس قد نزلت عن كوكب زحل، وهي أعظم منه، وإن أهمله أناس في مجتمعه، فعطر البخور في موطنه حطب لا قيمة له، ومع ذلك فهو مقتنع بأنّ ما يحدث له ولغيره من سنن الكون والحياة، وأنّ الأمور تتغيّر وتتبدّل فيها، ويقسم الشّاعر أنّه لولا حلم الله بالنّاس لأهلكهم على سوء أفعالهم، يقول: (ابن الوردي، 1986، ص183)

فكـلّ مـا فـي دمشـقَ حـلَّ مـن جَلـلٍ ... فشطـرُ ذلـكَ قاسـتْ أختُهـا حلـبُ

إنّ المصـائـب بـالأقـدارِ كائنـة ... لكـنْ علـى حسْـبِ الأقـدارِ تحتسـبُ

أقسمـت باللـهِ لـولا حلـمُ خالقِـنـا ... لكـنَ مـنْ عُشرِ ما نأتي بـه العَطَـبُ

(1) محمود بن سلمان بن فهد، شهاب الدّين محمود الحلبيّ الدّمشقيّ، ولد سنة644هـ، وتوفي 725هـ. من أبرز علماء عصره، وأدبائه، ونقّاده، وكتّابه، درس الفقه والحديث، وتولّى كتابة الإنشاء في مصر ودمشق وغيرهما، وله كتب كثيرة في الأدب والنقد والتاريخ والكتابة. (الصّفدي، 2000م، 167/25 وما بعدها)

ودهـــرُنا أيُّ دهـــرٍ فـي تقـلّـبِـــــهِ قـد هـانَ فيـه التّقـيُّ والعلـمُ والأدبُ
لـي أسـوةٌ بانحطـاطِ الشّمـسِ عـن زُحـلٍ فـإنْ علانـيَ مَـنْ دونـي فـلا عَجـبُ
وإن يكـنْ كســـدَ الـورديُّ فـي حلـــبٍ فالمنـدلُ الرّطـبُ فـي أوطانِـهِ حَطَـبُ
مـا شبـتُ عـــذارُ المـاءِ شـــاب إلـــى أن صـارَ ثلجـاً كـذا الأحـوالُ تتقلـــبُ

وتبدو نزعة الأنا والشعور بالظلم، وفقدان المكانة، بكثرة في شعر ابن الوردي، ففي مقطوعة أخرى يظهر نفسه في صورة حكيم، يظهر تميّزه في مجتمع جاهل، حاله فيه كحال الورد بين الأشواك، ولا يخفى من النصّ أنّ الشاعر وظّف التورية باسمه ليوصل معانيه للمتلقي، ووجهة نظره، يقول: (ابن الوردي، 1986، ص213)

أبـنـــــي زمـانـــــي مـــــا أنـــــا منكُـمْ وقــول الحــقِّ يُثبــتُ
وإذا نشـــــــــأتُ خـــلالـكُـــــــــمْ فالـوردُ بيـنَ الشّـوكِ يـنـبـــتُ

ويقف ابن الوردي على فقر بعض علماء عصره وسوء حالهم، وينتقد علو الجاهليين، حتى أضحوا ذوي شأن وسلطان، ويبيّن أنّ هذه الحالة هي التي زادت أهل الكفر كفراً، وجعلت أهل التقوى يتمسكون بدينهم، ولعلّه يقصد بذلك أنّ بريق المال يُطغي صاحبه، فينحرف عن الطريق القويم، والفقر يزيد المؤمنين صبراً، وثقة بالله، وتوجّهاً إليه، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص388).

كـم عالـمٍ عالـمٍ يشكـو طـوىً وظَمـــا وجاهـــلٍ جاهـــلٍ شبعـانَ ريّـانـــــا
هـــذا الـــذي زادَ أهـــلَ الكُفـــرِ لاسَلِمـــوا كُفـــراً وزادَ أولـــي الإيمـــانِ إيمانـــاً

وهو في ذلك يرد على أبي العلاء المعري، كما صرّح هو في ديوانه (ص 377)، وينقض قوله الذي صوّر الحالة تلك مؤذنة بارتداد العلماء، وخروجهم على طريق الحقّ، وتحوّلهم إلى زنادقة، وهو ما يبدو في قوله[1]:

كـــمْ عالـــمٍ عالـــمٍ ضاقـــتْ مـــذاهـــبُـــهُ وجاهـــلٍ جاهـــلٍ تلقـــاهُ مـــرزوقـــاً
هـــذا الـــذي تـــركَ الأفهـــامَ حـــائـــرة وصيـــرَّ العالـــمَ النّحريـــرَ زنديـــقـــاً

ويهاجم الشّاعر أغنياء عصره الذين أبغضوا العلماء، واستأثروا بالأموال، ولم يقدّموا لهم يد العون، ويسمهم بالغباء، ولعلّ نقده سببه أنّ العلم في عصره لا يجلب المال، وأنّ من سلك هذا الطّريق عليه أن يرضى بالقليل، ويقنع بالعلم، وأن يترك المال، والسعي له لأولئك الأغنياء، وهو في ذلك كلّه يعبّر عن بؤس أهل العلم، وضيق حالتهم، يقول موظّفاً الجناس في التعبير عن ذلّ: (ابن الوردي، 1986م، ص271)

(1) لم أعثر على هذه الأبيات في ديوان أبي العلاء المعرّي، ولكنها وردت في ديوان ابن الوردي، ص377.

مـــا الأغنيـــــاءُ الأغبيـــــاءُ حجّـــــةٌ وإنْ هـــمْ عـــنْ حُبّنـــــا مالـــــوا

نرضـــى بـــمـــا يَـقسِـمُـــهُ ربـّنـــــا لنـــا عـــلـــومٌ ولـــهـــم مـــــــالُ

ولا ينفكّ ابن الوردي عن المقارنة بين وضع العلماء في عصره، حال الجهّال فيه، فهؤلاء لا يحتاجون إلى الكدّ والتعب لينالوا رزقهم. أمّا العلماء والأدباء، واهل الفضل، فعلومهم كانت سبباً في كساد سوقهم، وضيق رزقهم في مجتمعه ذلك انّ الناس يناصبون كلّ مجتهد مميّز العداء، فيتجاهلونه، ويقفون ضدّه، بل قد يرمونه بالزندقة، والخروج على الدين، والطريق القويم، ولعلّ مصطلح الزنديق في ذلك العصر يقترب من مصطلح (مفلسف) عصرنا الذي يطلقه بعض النّاس على من يبدي رأيه، ويجادل، ويتعمّق في طرح أفكاره. ولذا يدعو الشاعر إلى ترك العلوم، والحرص عليها، لما لها من أثر سلبيّ في حياة صاحبها، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص 278)

لا تحـــرصـــنَّ علـــى فـــضـــــلٍ ولا أدبِ فقـــدْ يضـــرُّ الفتـــى علـــمٌ وتحقيـــقُ

ولا تُعـــدّ مـــن العُقّـــالِ بينـــهـــــــمُ فـــإنّ كـــلَّ قليـــلِ العقـــلِ مـــــرزوقُ

والعلـــمُ يُحســـبُ مـــن رِزقِ الفتـــى ولـــــهُ بكـــلِّ مُتّســـعٍ فـــي الفضـــلِ تضييـــقُ

أهـــلِ الفضـــائـــلِ والآدابِ قـــد كَســـــدوا والجاهلـــونَ فقـــد قامـــتْ لهـــمْ ســـوقُ

والنـــاسُ أعـــداءُ مـــنْ ســـارتْ فضائلُـــــهُ فـــإنْ تعمّـــقَ قالـــوا عنـــهُ زنـــديـــقُ

ويوظّف ابن الوردي أسلوب الحوار للتعبير عن سوء حاله في مجتمعه، فيبيّن له أحدهم أنّ علومه كانت سبباً في عدم شهرته، ولعلّه يقصد أنّ أهل العلم يعيشون حياة كفاف، وبؤس وفقر، فيؤكّد له ابن الوردي ذلك حين كشف أن العلماء أمثاله لا تشملهم الأرزاق حين توزيعها، موظّفاً الجناس في التعبير عن ذلك، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص497، 1970م، 217/2)

قـــالَ بـــعـــــضُ النّـــــــاسِ إنّـــــــي فـــاضـــلٌ فـــي العـــلـــــمِ خـــامـــــــلْ

وكـــذا الـــفـــاضـــــــلُ مثـــلـــــــي عنـــدَ قـــســـمِ الـــرّزقِ فـــاضـــــــــلْ

ولابن الوردي قصيدة جميلة، انتقد فيها حال مجتمعه وأبنائه، وأحسن تصويرهم ووصفهم، فبدأها داعياً إلى الصبر على زمانه الذي اختلطت فيه الأمور، وأضحى إنسانه حائراً، لا يدري الصواب من الخطأ، يقول: (ابن الوردي، 1986، ص244)

صبـــراً لصـــرفِ زمـــانٍ قاطـــعِ الحِجَـــجِ لـــم يـــدرِ مـــا صحّـــةُ الممشى منَ العَـــرَجِ

ثم ينتقل إلى تعداد الأسباب التي دعته إلى هذا الوصف، وتلك المقدّمة، فيدعو مرّة أخرى إلى الصبر على عصره ومجتمعه، فالرّحلة عنه قريبة، وما ذلك إلاّ لأنّ زمانه يرعى أهل اللؤم والقبح، ولا يقيم وزناً لكريم نفس، ولصاحب أخلاق حميدة، ولا يميز الخبيث من الطيّب، ولذا لا عجب فيه إن انحطّ أهل العلم، وارتقى الجهّال، وقدّم صورة جميلة للتّعبير عن معانيه، فبيّن أنّ كفّة الميزان يوضع فيها الذّهب الأصليّ والمغشوش، ولا تمييز بينهما فيها، وهكذا حال عصره، وهو في ذلك

كلّه يوظّف الصور الفنيّة، ومصطلحات النحو ليزيد نصّه جمالاً وحكمة، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص244-245)

يرعى اللّئامَ ويغتالُ الكرامَ ولا ... يخشى الملامَ بقلبٍ غيرِ مُختلجِ
صبراً على صَرفِهِ صبراً فرحلتُنا ... قريبةٌ عنهُ فليحتَلْ على المُهَجِ
ما بالُهُ لا يرى قَدْراً لذي شِيَمٍ ... سَمْحِ اليّدينِ ويعلي القَدْرَ مِنْ سَمجِ
فيا ذوي الفَضلِ رِفقاً إنَّ دَهْرَكُمُ ... لَمْ يَدرِ ما الفضّةُ البيضا من السّبَجِ
لا تَعجبوا لارتفاع الجاهليـ ... ـنَ بهِ وخَفْضِكُمُ بالرّضا منكمْ أو اللّججِ
فهذهِ كفّةُ الميزانِ إذ حَكَمَتْ ... تُقابلُ الذّهَبَ الإبريزَ بالصّنّجِ[1]

ثمّ ينقل للمتلقّي تجربته في التّعامل مع أبناء عصره، وبخاصة الأغنياء منهم، فينفي وجود من يتّسم بالجود والكرم، او من يقدّم للآخرين يد العون، وبل وجدهم يكرهون أهل الفضل، لا يؤتمن جانبهم، ولا يتصفون بأمانة أو عدالة، ولا يعنيهم مدح مادح لهم، ولا يخيفهم هجاء هاج إن فسدوا أو بخلوا، وكأن مشاعرهم تبلّدت، فما عادوا يشعرون، وكثير منهم كاذبون، وهنا يوظّف القرآن الكريم للتّعبير عن هذه الصّفة فيهم، فكما أنّ الأعرج لا حرج عليه، فإنّ هؤلاء لا حرج عليهم، لأنهم حادوا عن طريق الحقّ والصّواب، ولذلك كلّه آثر الابتعاد عنهم، فهم كالكلاب يتهارشون على الدّنيا، ولا ينصح بمزاحمتهم عليها، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص245-246)

جرّبتُ أهلَ زماني واختبرتُ فلمْ ... أجِدْ كريماً ولا عوناً على الحَرَجِ
ولا مُحبّاً لذي فَضلٍ ولا ثقةٍ ... ولا أميناً ولا عَدْلاً على العَوجِ
ولا مُصيخاً إلى مَدْحٍ إذا مُدِحوا ... ولا كريماً يخافُ الهجوَ حيثُ هُجي
مِنْ أجلِ ذلكَ قد جانبتُ أكثرَهُمْ ... وقلتُ يا أزمةُ اشتدّي لتنْفَرجي
فإنّهمْ عن سبيلِ الصِّدقِ قد عَرَجوا ... فاعذُرْ فليسَ على العُرجانِ مِنْ حَرَجِ
فلا تُزاحمْ على الدُّنيا الكِلابَ فَمَنْ ... يُزاحمُ الكلبَ فيما نالَهُ يُهجِ

ب. نقد الصّداقة والصّديق

لقد وقف الشاعر ابن الوردي عند سلوك طالما شكاه الأدباء عبر العصور، وتحدّثوا عنه، وهو حال الصّداقة والصّديق الذي يتغيّر ويتلّون مع الأيّام، ولا يبقى على حال، وبخاصة حين يرتقي هذا الصديق إلى مناصب عليا، فإنّه يتخلّى عن صديقه، بل يخلع ثياب التقوى والإيمان، ولذا

(1) الذّهب المغشوش.

يدعو من أراد أن يبقي على ودّ صديق ألاّ يدعو له أن يرتقي في منصب، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص248).

إذا كنـــتَ ترجـــو ودادَ امـــــرئٍ فـلا تـــدْعُـــونَّ لـــهُ بارتـــقـــــا

فإنّ الصّديـــقَ متـــى مـــا ارتَقـــى تخلّـــى عـــن الأصدقـــا والتُّقـــــى

ويكرّر نقده لأولئك الأصدقاء الذين تعالوا على أصحابهم، وأهملوا ودّهم، ويتناصّ مع قصّة نبيّ الله سليمان، عليه السلام، حين طلب إليهم أن يقتدوا به، إذ اجتمع مجلس حكمه، ولم يرَ فيه الهدهد، فسأل عنه، وهو ما هو عليه من ملك وسلطان، يقول: (ابن الوردي، 1986م، 263)

قولـــوا لمـــنْ غيّـــرهُ منصـــبٌ مـــنْ أهمـــلَ الأصحـــابَ عـــادوا عـــدا

أمّـــا سليمـــانُ علـــى مُلكـــهِ قد قالَ: (مـــا لـــي لا رى الهدهـــــدا)

(سورة النّمل، آية 20)

وينتقد أحد أصدقائه الذين باح لهم بسرّه، فاستغله ليكون مصدر ابتزاز له، وبيّن أنّه وضع على رقبته سيفاً مسلّطاً طيلة حياته، وهو بذلك يحذّر من إفشاء الأسرار حتى لأقرب صديق، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص357)

وأفشيـــتُ ســـرّي إلـــى صاحـــبٍ فعُـــدتُ لـــه طـــولَ دهـــري ذليـــلاً

فـــوا أسفـــا كيـــف أودعْتُـــه ليـــومِ العـــداوةِ سيفـــاً صقـــيـــلاً

ج. نقد بعض طوائف المجتمع

تعدّدت طوائف المجتمع في العصر المملوكيّ الأوّل، ومنها اليهود، والنّصارى، وطائفة الشيعة. ((مجتبى وآخرون، 2016، ص 105) ولم تسلم بعض هذه الطوائف من لسان ابن الوردي، فها هو يهاجم طبيب عيون يهوديّ أو كحّال، ويبيّن خطورته على مرضاه حتى باتت عين الشمس تخشى كحله، وأذاه، فما وقع مريض بين يديه إلا قضى عليه، وكأنه بذلك يأخذ ثأر آبائه من المسلمين، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص265).

هـــذا اليهـــوديُّ الطّبيـــبُ الـــــذي لا طـــوَّلَ اللـــه لنـــا عُمـــرَهُ

قـــــد أخـــذَ الثّـــأرَ لآبائِـــــهِ يا قومَنـــا لا تهملـــوا أمـــــرَهُ

تخافُ عيـــنُ الشّمـــسِ مـــنْ كُحلِـــــهِ قـائلـــةً ربّ اكفنـــي شـــــرَّهُ

أيّ مـــريـــضٍ طبّـــــهُ طمّـــــهُ وأيّ طَـــرْفٍ ذرّهُ ضـــــرَّهُ

وكان بعض النّصارى يشتركون في حرائق مفتعلة في القاهرة، ومثل هذا حدث سنة 721هـ، فأثار ذلك انفعال ابن الوردي، فصبّ جام غضبه عليه، وطلب إليهم أن يكفّوا أذاهم المتكرّر عن المسلمين، وأنذرهم إن كانوا تسبّبوا في حريق في الدّنيا، فإنّ مصيرهم نار جهنم يصلون فيها في الآخرة، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص497، 1970م، 388/2)

عَدِمْتُكُـــمُ نصـــارى مصـــرَ كُفّـــــوا فكـــمْ آذيتمونـــا مـــن طريـــــقِ
حريـــقُ النّـــارِ قـــدْ عجّلتمـــــــوهُ فأجّلنـــا لكـــمْ نـــارَ الحريـــــقِ

وهاجم ابن الورديّ بعض الشيعة في عصره، وهو الشريف حسين بن داود بن يعقوب الفَوعيّ (ت739هـ)، الذي كان مغالياً، يدعو إلى التشيّع، وجاء ذلك في مقطوعة تشفى فيها بموته، وعدّ ذلك شفاء لصدر الدين الإسلاميّ منه، إذ تخلّص ممّن كان يتعرّض لصحابة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول: (ابن الورديّ، 1986م، ص483، 1970م، 461/2)

وقـــامَ لنصـــرِ مذْهَبِـــه عظيمـــاً وحـــدّدَ ظَفـــرَهُ وأطـــالَ نابَـــــهْ
تبـــاركَ مَـــنْ أراحَ الدّيـــنَ فيـــه وخلّـــــصَ منـــهُ أعـــراضَ الصّحابـــهْ

جـ. نقد السلوك السّلبيّ وفساد الأخلاق

ويكثر ابن الوردي في شعره من رسم صورة لبعض أبناء عصره، وما كانوا يتّصفون به من سوء خلق، وسلوك سلبيّ، فهو ويركّز على بخلهم، وبخاصة الأغنياء منهم، على ما مرّ سابقاً، حين صوّر موقفهم من حرمان العلماء والفضلاء، وتقريب الجهّال، والإغداق عليهم. وهو في مقطوعة أخرى يوجّه نقده للمجتمع البغدادي الذي يبدو أنّه زاره، ومكث فيه، وخبر بعض أناسه، فيصوّر ضيفهم وقد حرم من الطعام، ومظاهر الإكرام المختلفة، فلا يَلقى إلا السّلام لديهم، وقد علّل تسمية بغداد بدار السّلام لهذا السّبب، ولا يخفى أنّ توظيفه حسن التّعليل، والمديح في معرض الذمّ جاء ليسخر به من أولئك البخلاء، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص254)

وفـــي بغـــدادَ أقـــــوامٌ كرامٌ ولكـــنْ بالسّـــلامِ بـــلا طَعـــامِ
فمـــا زادوا الصّديـــقَ علـــى ســـــلامٍ لهـــذا سُمّيـــتْ دارَ السّـــــــلامِ

ويكّرر ابن الوردي شكواه ونقده لظاهرة الحسد، والنّميمة، والحقد، والبغض في مجتمعه، تلك الأخلاق التي لا يخلو منها زمان أو مكان، ويصوّر تجاره الشخصية، وينقل خبرته إلى المتلقين، فيوجه خطابه إلى أحدهم قد ذمّه، وظلمه بسوء القول، ويبيّن أن سبب ذلك الحسد، وأنّه لو شاء لقال في عيوب هذا الحاسد، وكتب الكثير، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص311)

قـــــلْ لحســـــودٍ ذَمّنـــــــي جَـــوْراً وظُلـــمـــاً واعـــتـــــدى
لـــولا التُّقـــى صنّفـــتُ فـــــــي عُـــيـــوبِـــــهِ مُـــجـــلّـــداً

ويجمع في مقطوعة أخرى المظاهر الخلقية السابقة كلّها، حين يبدأها بشكوى زمانه، وتصوير موقف أبناء عصره منه، ويبدو أنّ الشاعر كان يشعر ببغضهم، وحسدهم، ونقمتهم عليه، وقد عزا ذلك في غير موضع إلى نجاحه وتفوّقه، ونقمة هؤلاء على أهل الفضل والعلم، ولعلّ تجربته معهم كان يشوبها فشل كبير، جعلته يهاجمهم، ويكشف عمّا في نفوسهم، وعن عداوتهم، فوصفهم كارهين

إيّاه، وحاقدين عليه، وسفهاء جهلة، مكرّراً كم الخبرية لتعزيز ما يقول. وينذر الحسّاد منهم بخاصة أنّ حسدهم سيردّ عليهم، ويصيبهم ما أضمروه، يقول: (ابن الورديّ، 1986م، ص280)

أشكـــو إلـــى اللّـــهِ زمانـــي الّـــذي ... صـــــرتُ إليـــهِ وتحـــيّـــرتُ فيـــهْ

أيُّ امـــــرئ جرّبـــــتُ أهلَـــــهُ ... يظهـــرُ منـهُ كـــلُّ أمـــــرٍ كريـــــهْ

كم حاســـدٍ كـــمْ مـــاردٍ كـــم عـــدِا ... كـــم عائـــبٍ كـم مُبغـــضٍ كـــم سَفيـــهْ

فليفعـــلِ الحاســـــدُ فـــي دهـــــرِهِ ... مـــا شـــاءَ لا بـدَّ وأن يلتقيـــــــهْ

مـــا بيـــنَ أعدائـــي وبينـــي ســـوى ... أنّ بهـــــمْ جَهْـــلاً وأنّـــي فقيـــــهْ

وما زال ابن الوردي يعبّر عن أذى الحاسدين له، ويهاجم اخلاقهم وسلوكهم، فهو يبدأ إحدى قصائده بالتذمّر من الزمان الذي يعيشه، ويشكو إلى الله أخلاق أبنائه، وتقديرهم الجهّال والعبيد، وإهانتهم أهل الفضل من أمثاله، ثمّ يركّز على واقعه الشخصيّ الذي عاشه مع هؤلاء، ويصوّر أذاهم المستمر له، ونقمتهم عليه، وحسدهم له، وغيرتهم منه، ومن شهرته التي طبّقت الآفاق حتى كادت قلوبهم تنفطر غيظاً وبغضاً، كأنّها نار جهنم، وهو في ذلك ينقل لنا صراعهم الدّاخلي تجاهه، ويقرن بينه وبين ما ورد في القرآن الكريم من تصوير جهنّم وسعيرها، ويطلب إلى صديقه المتخيّل أن يعينه على هجرهم، وتجنّب أذاهم، فهم كالكلاب يتعاركون على الدّنيا وجيفتها، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص312-313، 315)

مـــا للزّمـــانِ عـــن المـــــروءةِ عـــــارِ ... مـــا عنـــــدهُ فـــي مُنكـــــرٍ مـــن عـــــارِ

أشكـــو إلـــى اللـــــهِ الزّمـــــانَ فَدَأبُـــــهُ ... عِـــزُّ العبيـــدِ وذلّـــــةُ الأحـــــــرارِ

لا غَـــروَ أن حَسَـــدَتْ بنـــوه مناقبـــــي ... كـــلُّ علـــى مجـــرى أبيـــهِ جـــارِ

وارَحمـــتـــا للحاســـديـــنَ فشـــأرُهـــــم ... قـــدْ سُعّـــرتْ بُعـــداً لهـــا مـــن نـــارِ

وإذا جـــرى ذكـــري تكـــادُ قلوبُـــهـــــمْ ... تنشـــقُّ أو تغتالنـــــــي بشـــــرارِ

كرهـــوا عطـــاءَ اللـــهِ لـــي يـــا ويحهـــمْ ... لشقائهـــم كَرِهـــوا صنيـــعَ البـــاري

ويزيدُهـــمْ نـــاراً وقـــودُ قـــريحتـــــي ... وبلـــوغُ أخبـــاري إلـــى الأقطـــارِ

يـــا سعـــدُ ساعدنـــي علـــى هجرانهـــمْ ... فـــي اللـــهِ هجـــرَ مجانـــبٍ مُتَـــوارِ

واحـــذرْ بنـــي الدّنيـــا وكُـــنْ فـــي غفلـــةٍ ... عنهـــمْ وجانـــبْ كـــلَّ كلـــبٍ ضـــارِ

كـــم حاســـدٍ كـــم كائـــدٍ كـــم مـــاردٍ ... كـــمْ واجـــدٍ كـــم جاحـــدٍ كـــم زارِ

ويؤكّد في أبيات أخرى أن تميّزه سببُ الحسد المجتمعي له، وأنّه مثل كلّ النّاس له أخطاء، ولكنّها لممٌ، لا تصل إلى الكبائر والفواحش من لواط، وشرب خمر، ومعاطاة حشيش، وهو في

جانب خفي ينتقد بعض أخلاق أهل عصره التي شاعت يومذاك، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص317)

يـــا حاســـدي إنّ لـــي ذنوبـــاً تُكسَـــرُ مـــن هولِهـــا الجيـــوشُ
لكنّهـــا لا لـــواطَ فيهـــا ولا نبـــيـــذٌ ولا حـــشـــيـــشُ

وينقد ابن الوردي شيوع بعض المظاهر الخلقية السيّئة، ولعلّ أبرزها اللّواط، والشذوذ الجنسيّ (مجتبى وآخرون، 2016، ص102-103) الذي فشا في العصر المملوكيّ، وتناوله الأدباء، والمؤرخون، والفقهاء، حتى وصلت إلى بلاط السّلاطين، وأرباب الحكم، وجعلت فقيهاً مثل بهاء الدين السبكي يتناولها في كتابه (معيد النّعم ومبيد النقم) حين تحدّث عن طائفة الجَمْداريَّة التي اختصت بملابس السّلطان المملوكيّ، ولكنهم صاروا يتشبّهون بالنّساء، ويكونون موضع شهوة حكامهم، ولذا حذّر الفقيه من هذه الظاهرة، وبيّن أنها السّبب في جلب نقم الله على عباده المسلمين يومذاك، يقول متحدّثاً عن هذه الطّائفة: " وأكثر ما يكونون صبياناً ملاحاً مُرداً، يتعاناهم الملوكُ، وكذا الأمراء، ويكونون بالنّوبَةِ مع المخدوم، يلازمونه حتى وقت نومه، وقد تناهت الرّغبة فيهم لاستيلاء شهوة المُرد المِلاح على قلوب أكثر أهل الدّنيا، وصارت الجَمْداريّة تتنوّع في الملابس المهيّجة للشّهوات البشريّة، ويتزيّنون، فيُربونَ بذلك على النّساء، ويَفْتِنون النّاس بجمالهم، وحرامٌ على جَمْدار يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُنَصّب نفسه لهذا الغرض، أو أن يتشبّه بالنّساء فيما خُلقنَ له، وليس له من أن يُمَكّن مخدومه من أن يلوط به، ولا أن يُقبّله، فليتق الله ربّه...". (السّبكي، 1986م، ص349)

وقد هاجم ابن الورديّ من يتعانونَ هذه الفاحشة، ويؤكد شيوعها حتى باتت لا تجد من ينكرها، ويحذّر من يمارسونها عقوبة الله، وغضبه، فقد هلك من كان قبلهم بها، وحُرموا جنان النّعيم، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص318)

يـــا قـــومُ صـــارَ اللّـــواطُ اليـــومَ مُشتهـــراً وشائعـــاً ذائعـــاً مـــن غيـــرِ إنكـــارِ
ذنـــبٌ بـــهِ هَلَكـــتْ مـــنْ قَبلِنـــا أمـــمٌ والعـــرشُ يهتـــزُّ منـــهُ هـــزّ إنكـــارِ
جنّـــاتُ عَـــدنٍ علـــى اللّوطـــيّ قـــد حُرمتْ اللـــه أكبـــرُ مـــا أعصـــاهُ للبـــار

وتزداد صورة المجتمع سوداوية في نظر ابن الوردي حين يرى أنّ مجتمعه قد أصبح خلواً من العلماء، وأهل الإيمان الحقيقي عدا القليل منهم، وربما يقصد انزواءهم، وقلّة تأثيرهم، إذ حلّ محلّهم الجهال، ويبدو مشفقاً على طلاب العلم، لأنّهم يعانون في الوصول إلى عالم حقيقيّ، يتلمذون عليه يديه، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص261)

مـــاتَ أهـــلُ العِلْـــمِ مـــا لـــي لا أرى إلاّ جهـــولاً
أيّهـــا الطّالـــبُ صِـــدْقـــاً قـــد طلبـــتَ المستحيـــلا
لـــم تجـــدْ إلاّ قَـــؤولاً للتُّقـــى ليـــس فَعـــولا

إنّ أهـــــلَ العصـــــرِ عنـــــــدي هــكـــــــــــذا إلاّ قـلـيـــــلاً

وينتقد الشاعر ابن الوردي ظاهرة يبدو أنّها كانت منتشرة في في المجتمع المصريّ، وهي تملّق الشعراء، وبعض أبناء عصره للكبراء وذوي الجاه والسلطان، ويعيب عليهم هذا السلوك، الذي استعاضوا به عن السّحر الذي اشتهر قدماً هناك، حتى أضحى نيلها يتملّق، في إشارة إلى سعة شيوعه، يقول: (ابن الورديّ، 1986م، ص325)

لقــدْ كــانَ السّحــرُ فــي مصــرَ ظاهــراً فأصبــحَ ذاك السّحــرُ بالشّعــرِ يعلـــقُ

فاللـــهِ مـــا أحلـــى تملّـــقَ أهلِـهـــا وقد زادَ حتّى أضحـــى مـــاؤها يتملّـــقُ

ويعبّر في مقطوعة أخرى عن غضبه على بعض شعراء عصره الذين أزروا بشعرهم، ومدحوا من لا يقدّر المديح، ولا يعرفون قيمته، فكانوا كالذي قلّد البقر دررا، وبيّن أن فقرهم، وسوء حالهم لا يشفع لهم ما فعلوه، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص369)

واغضبـــــا مـــــن شاعـــــــــرٍ وإنْ أقـــــــلَّ وافـتـــقـــــــرْ

أهـــــــــانَ مـــــــــا يعملُـــــــهُ فـقـلّـــــدَ الـــدرَّ الـبـقـــــرْ

ثالثاً: النّقد السّياسيّ

حاز النقد السياسي مساحة كبيرة في شعر ابن الوردي، وتناول فيه جوانب عديدة، يمكن إجمالها في الآتي:

أ. الظّلم والجَور

ركّز الشاعر في هذا الجانب على سلوك المماليك، وشخصيتهم، وما كان في عهدهم من ظلم، وعسف، وخلاف، وقدّم مظاهر مختلفة لذلك، ووظّف أساليب متنوّعة في الخطاب، وشنّ هجوماً لاذعاً على أناس مخصوصين منهم، اشتهروا بالفساد، والأنانية، وإيثار الذات، واستغلال المنصب، وشمل نقده أماكن متنوّعة من جغرافيا الحكم المملوكيّ، ومنها حلب ومصر، وبيّن أن سلوك بعض حكّامها سلوك جاهل، لا يشي بأنه من المسلمين، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص206)

فــلانٌ يــا للنّــاسِ مــنْ جَــهْــلِـــــهِ وفِسْقِـــــهِ فـــي حلـــبٍ يحكـــــمُ

إن لـــمْ يكُـــنْ فـــي حلـــبٍ مسلـــــمٌ فمصـــرُ مـــا كـــانَ بهـــا مُسلـــمُ

ويعجب من بعض هؤلاء الأمراء إذ وظّف أسلوب المفارقة في تصويره، فسخر من أخلاقه، وسلوكه في ظلم النّاس، فهو يدّعي التّقوى والزّهد، والعمل بأوامر الله،ولكنّه في حقيقته سفّاح،حاله حال جزّار يسمّي الله على ضحيّته ثمّ يذبحها، يقول: ((ابن الوردي، 1986م، ص353)

قَـــــدْ عَجِبنـــــا لأميـــــــرٍ ظلَـــــمَ النّـــــاسَ وسبّـــــــــــحْ

فهـــــو كالجـــــزّار فيهـــــمْ يذكُـــــــــــرُ اللـــــهَ ويَذْبـــــــحْ

وكان ابن الوردي يصرّح بأسماء الولاة أو الحكّام الظالمين الذين شاع بطشهم في النّاس، وبخاصّة بعد أن يموتوا أو يعزلوا، أو تنزل بهم عقوبة، ولذا ورد في شعره أسماء بعضهم، ومنهم بدر الدين لؤلؤ القُندشيّ، الذي عُيّن شادّاً[1] في حلب، فظلم وبغى، واستاء منه النّاس، وقنتوا في صلاتهم، وكذلك فعل في مصر، حتى عزل سنة 740هـ، وعوقب سنة 742هـ حتى مات. (ابن الوردي، 1970م، 428/2-464) وقد صوّر ابن الوردي أفعال هذا الشادّ، وتسلطه على النّاس، حتى نفى النوم عن عيونهم، ووصفه سيفاً مسلطاً على رقاب العالمين، وتوجّه إلى الله، فهو وحده القادر على ردعه، وتخليص الناس من ظلمه، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص498، 1970م، 428/2)

قلبـــي لعمـــــرو اللـــــه معلـــــولُ بمـــا جـــرى للنّـــاسِ مـــع لـــــولـــــو
يا ربُّ قـــدْ شـــــرَّدَ عنـــــا الكَـــــرى سيـــفٌ علـــى العالـــمِ مسلـــــــــــولُ
ومـــــا لهـــــذا السَّيـــفِ مـــنْ مُغمـــــدٍ ســـواكَ يـــا مَـــنْ لُطفُـــهُ السّـــــــولُ

وبعد موت لؤلؤ شمتَ به النّاس، ودعوا عليه لظلمه، ومنهم ابن الوردي الذي كرّر تصوير ما فعله بهم: عامّتهم وخاصّتهم، من نهب للأموال، ومصادرة لها، وعقوبات، واستوحى النّصّ القرآني "إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا" (سورة الإنسان، آية 19) وجعل منه تورية إذ نقل معناه من المعنى الإيجابي في وصف ولدان الجنّة المخلّدين إلى المعنى السلبي في تمنّي أن يرى لؤلؤاً قِطَعاً متناثرة في إشارة إلى سوء المصير، فقال: (ابن الوردي، 1986م، ص353، مجتبى وآخرون، 2016، ص98)

أشكـــو إلـــى الرحمـــنِ لؤلـــؤاً الـــــذي أضحـــى يُصـــادرُ ســـادةً وصُـــــدوراً
نثـــرَ الجُنـــوبَ بـــل القلـــوبَ بسوطـــهِ فمتـــــــى أشـاهـــدُ لـؤلـــؤاً منثـــــوراً

وينتقد ابن الوردي سياسة المصادرات التي اتبعها السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون[2] سنة 727هـ، بعد فتنة الإسكندريّة بين المسلمين والفرنجة، وغضبه على أهلها، وعقوبته لهم، ومصادرة أموالهم، وسفك دمائهم،(انظر تفاصيل ذلك وكثرة المصادرات في عهده: ابن الوردي، 1970م، 402/2، وانظر الشجاعيّ، 1985م، ص88، 93)، وقد صوّر ابن الورديّ ذلك كلّه، وعبّر عن دهشته من تفشي الفساد في عصره، حتى بلغ حدّاً لا يستوعبه عقل، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص487، 1970م، 402/2)

---

(1) بمعنى المشرف على مهمّة خاصّة به، وكان منها في العصر المملوكيّ: شادّ القصر، وشادّ الحوش، وشادّ الدّواوين، وشادّ الخاصّ، وشادّ المستخرج، وشادّ الأوقاف، وشادّ السلاح، وشادّ العمائر، وغيرها. ابن شاهين الظاهريّ، 1892م، ص115.

(2) ناصر الدّين أبو الفتح محمّد بن المنصور قلاوون الألفيّ، ولد سنة 684هـ، وتوفي سنة 741هـ، هو تاسع السلاطين المماليك، ومن أعظمهم شخصية، وقوّة، وهيبة، حقّق إنجازات عظيمة فترة حكمه، فضبط شؤون الدّولة، وانتصر على المغول في معركة مرج الصفّر سنة 702هـ. انظر الصفدي، 2000م، 251/4 وما بعدها.

تبـــــارَكَ اللـــــهِ ذو الجـــــلالِ لقـــد أدهـــشَ عقلـــي زمانُنـــا الفاســـدْ
مُصـــــادراتٌ جَـــرَتْ وسفـــكُ دمـــا وأصلُهـــا ضـــربُ كافـــرٍ واحـــدْ

ومن أكثر المسؤولين الذين ظلموا الناس، وصادروا أموالهم، وسفكوا دماءهم، وعاقبوهم بعقوبات مختلفة شرف الدّين النّشّو، الذي تولّى نظر الخاصّ[1] في عهد النّاصر محمد بن قلاوون، وشغل الناس ببطشه، وسوء سيرته، ورويت الأخبار الكثيرة في ذلك، إذ سلّمه الناصر محمد رقابهم، وكانت عادته "أنّ كلّ شيء يتوقّف، يسلّمه للنشّو، ينهض فيه بظلمه وعسفه" (الشجاعيّ، 1985، ص63، وانظر ص58، 71، 73)، وبلغ ظلمه أن دعا عليه الحجّاج في المدينة ومكّة عند رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم" (الشجاعي، 1985م، ص63)، وقال فيه الشجاعي (1985، ص71)، " ولا سُمع ولا دُري بداهية دهت الإسلام بمثلها". وقد استطاع بعض الأمراء إقناع السلطان بسوء سيرته،فانقلب عليه، وقتله مع كثير من أسرته سنة 740هـ (الشجاعي، 1985، ص72، ابن الوردي، 1970م، 464/2)، فكان وفاته راحة للناس، وتبريدا لأكبادهم،فهاجمه الشعراء، وأكثروا من التّشنيع عليه، والسّخرية منه، ووصف سوء سيرته، والإشادة بما فعله السلطان به، ومنهم ابن الوردي الذي قال فيه: (ابن الوردي، 1986م، ص496، 1970م، 464/2)

النّشـــو لا عـــدلٌ ولا مَعْرِفـــــهْ قـــد آنَ للسّلطـــانِ أنْ يصرِفَـــــهْ
مَـــنْ أتلـــفَ النّـــاسَ واموالهـــمْ يَحـــقُّ للسُّلطـــانِ انْ يَصْرِفـــــهْ

وينظم ابن الوردي في مقطوعة أخرى تعبّر عن الجور الذي عمّ مدينة حلب من أرباب الحكم فيها، والفزع الذي أصاب الناس، ويتحسّر على وضعها، فحشد صور حيوانات مختلفة تمثّلهم، وتصوّر أخلاقهم، وسلوكهم، وتسخر منهم، وتبيّن المرارة التي تعتري داخله، وكأن النّاس يعيشون في غابة لا مجتمع إنسانيّ، كما يبدو في قوله: (ابن الوردي، 1986م، ص419)

ويلـــي علـــى الشّهبـــاءِ ويـــل الشّهبـــا قـــد أصبحـــتْ بيـــن الوحـــوشِ نهبـــا
قـــــرداً وذئبـــــاً وزُوِّجـــــتْ كلبـــــاً مـــا بقيـــتْ تعـــوزُ إلاّ الـــدُّبَـــا

ب. الاختلاف والطّمع في السّلطة

ألقى ابن الوردي الضوء على ما كان بين أرباب الدولة المملوكيّة من خلاف وشقاق، ونزاع على الحكم، وانقلابات لا تهدأ، وعلّل ذلك بالطّمع الذي حكم نفوسهم، وشره السلطة والحكم، والتّنازع على الدّنيا، ويوجّه نصيحة للنّاس جامعي الأموال بأنّ ذلك لن يريحهم، وسيعيشون في ضنك كما هي حياة المماليك، فلا مرتاح، وفق رأيه، سوى الفقراء الذين لا يملكون شيئاً، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص253)

(1) وظيفة أستحدثها الملك الناصر محمذد بن قلاوون سنة 713هـ، وولّاها أرباب الأقلام، وكان متوليها مسؤولاً عن خزانة السلطان وأمواله في قلعة الجبل. انظر البطاوي، 2007م، ص23

يـــا جامـــعَ المـــالِ كيمـــا تستريـــحَ بـــهِ ما راحـــةُ الـقـلـــبِ إلاّ للصّعاليـــكِ
فكُـــنْ فقيـراً تَعـــشَ عيـــشَ المُلـــوكِ ولا تَكـــنُ غنيّـاً تعـِشْ عَيـشَ المماليـــك

ويمزج ابن الورديّ بين أسلوبه الساخر، وما يعانيه من مرارة في نفسه من كثرة تغيّر أرباب الحكم في مدينته حلب، حتى باتت الأسواق مزيّنة دائما لاستقبالهم، أو في شغل لذلك، ولم تعد تجد لحى الرّجال وقتاً حتى تنبت لاستقبال نائب جديد في إشارة منه إلى سرعة تغيّرهم، وذهاب نائب ومجيء آخر مكانه، يقول بعد أن أعفي النّاس من زينة الأسواق عند استقبال النوّاب لكثرتها حتى سمجت سنة 748هـ: (ابن الوردي، 1986م، ص485، 1970م، 494/2)

كـــمْ مَلـــكٍ جـــاءَ وكـــمْ نائـــــبٍ يـــا زينـــةَ الأســـواقِ حتّـــى متـــى؟
قـدْ كـــرّروا الزّينـــةَ حتّـــى اللّحـــى مـــا بقيـــتْ تَلحَـــقُ أنْ تَنْبُـــتا

ويسلّط الضوء على نزاع المماليك على تولية السّلاطين، وبخاصّة إذا كان صغير السنّ لم يبلغ الحُلُم، وبيّن أنّ خلافهم هذا سببه التنافس على توزيع المناصب، والرغبة من الإفادة من هذا الطفل الجديد، لتحقيق أكبر قدر من الامتيازات، والاستحواذ على السّلطة والحكم، وقد انتقد ابن الوردي تولّي الملك الأشرف كجك[1]، وعمره خمس سنوات، فبيّن شدّة الخلاف الذي دار بين أمراء المماليك يومذاك، وأثّر على نظام الحكم، فغاب العدل، وشاع الظّلمُ يومذاك، وهو في ذلك يتأثر بقصة نبيّ الله يوسف، عليه السلام، إذ استطاع الشيطانُ أن يدبّ الخلاف بينه وبين إخوته، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص222)

سلطانُنـــا الـيومَ طِفـــلٌ والأكابـــرُ فـــي خُلـفٍ وبينهـمْ الشيطـانُ قـد نّـزّغـــا
فكيـفَ يَطمـــعُ مَـنْ مَسّتـــهُ مَظلَمـــةٌ أنْ يبلُـغَ السّـؤلَ والسُلطـان مـا بَلَغـــا

ج. نقد فساد أرباب الحكم وبعض صفاتهم

قدّم ابن الوردي في شعره مظاهر متعدّدة من فساد أرباب الدّولة المملوكيّة، وانتقد عدداً منهم، وهاجم تصرّفاتهم، وبيّن أثرها الكبير على مجتمعه، ومنهم حاجب دمشق الذي على ما يبدو كان يأخذ الرُّشى من الناس ليمكنهم من رؤية أرباب الدّولة، فيوظّف التورية ليكشف عن لغة الإشارة التي كان يخاطب بها هذا الحاجب الناس ليعطوه المال، فيوظّف لقبه الوظيفي (حاجب) ليصنع منه هذه التورية، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص299)

(1) هو كجك بن محمّد بن قلاوون (734هـ-746هـ)، ولي السلطة وعمره خمس سنوات، واستمرّ مدّة يسيرة، والأمير قوصون يدير المملكة، إلى أن حضر النّاصر أحمد من الكرك، فخلعه. انظر ابن حجر، 1997م، 352/3.

إنّ لنـــا فـــي جِلّـــق حاجبـــاً مِـــنْ عَجَـــبٍ الـدّنيـــا بوجهيـــنِ
ناظـــرهُ نحـــو الرُّشـــى مُشـــرفٌ مـــا أطمـــعَ الحاجـــبَ فـــي العيـــنِ[1]!

ودرجت بعض أنظمة الحكم بصورة عامّة على تقريب الموالين لها، المروّجين سياساتها، وربما لا يعنيها جهلهم وفسادهم طالما حقّقت من خلالها مآربها الشخصية، وثبّت بها حكمها، ولعلّ ذلك ما كان يحدث في فترات من عصر المماليك، ومن هنا نقم ابن الوردي عليها، وهاجم سياسة المماليك في تقريب الجهّال، ومنحهم الامتيازات الكثيرة، واستبعاد العلماء والفضلاء، وبيّن أنّ ذلك من مفاسد سياستهم وحكمهم (انظر تفصيل ذلك: رائد عبد الرحيم، 2013م، ص68 وما بعدها)، ويبدو الشاعر ناقماً عليهم، داعياً المتلقين إلى عدم الإعجاب بهم، أو إعلاء شأنهم، فمن يذلّ العلماء، ويقرّب الجهال والمنافقين فحتماً دولته زائلة، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص224)

فـكـــــمْ نـــاقـــــصٍ ثَـــغـــــرُهُ بـــاســـمٌ وكـــم فـــاضـــلٍ ســـنُّـــهُ يُـــقـــــرَعُ
فـــلا تُـــعـــجـــبـــنـــكَ عـــلا جـــاهـــلٍ فدولـــتُـــهُ بغتـــــةً تـــقّـــلـــــــعُ

ثم يخاطب ابن الوردي زائري أرباب الدّول، وأبناء عصرهم، ويؤكّد لهم أنّهم يحاربون العلماء والفضلاء، ويهمشونهم، ولا يحفلون بعلم أو أدب، ولا مكان لشاعرٍ بينهم، ولا احترام لإنسان، فعظيم الناس محتقر لديهم، يُضربُ، ويُهانُ، ويُذلُّ، أو يترك محبوساً ليموت[2]، وعلاوة على ذلك فهم بخلاء، ولهذا يتجنّب السّعي إلى بابهم، ويتمنى زوال حكمهم (انظر تفصيل ذلك في: رائد عبد الرحيم، 2013م، ص37 وما بعدها). وهذا ما يبدو في قوله: (ابن الوردي، 1986م، ص224)

فـخـــلِّ العـلـــــومَ إذا جئـــتَـــهـــــمْ فلـيـــس لـــهـــا عنـــدهـــمْ مـــوقـــعُ
ولا تـــذكـــرنْ أدَبـــاً عـــنـــدهـــــــمْ فـــآدابُ أشعـــارِهـــم بلـقـــــعُ
أجـــلُّ الـــورى عندهـــمْ رتـبـــــةً وضـــيـــعٌ يـــزْمـــزمُ أو يُصـفـــــعُ
أرى البُخـــلَ مُستبشـعـــــاً فـاحـشـــاً وسعيـــي إلـــى بابِـــهـــمْ أبـشـــعُ
فيـــا قُبحَهـــمْ فـــي الّـــذي خُـــوّلـــــوا ويـــا حُسنـــهـــــم عنـــدمـــا يُـــنـــزعُ

(1) معنى العين في السياق الأموال، ويقصد بها ما ضرب أو سكّ من الأموال. انظر ابن منظور، 2003م، مادة (عين).

(2) ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الملك الناصر محمّد بن قلاوون وأرباب حكمه بابن تيمية، إذ حبسوه غير مرّة، ومنعوا عنه الورقة والقلم، وتآمروا عليه، حتى مات في سجنه، ولابن الوردي أشعار في رثائه، وفي نقده ما فعلوه فيه، أتيت عليها في بحثي (صور من النقد السياسي في أدب العصر المملوكي الأول: موقف السلطة من المثقّف انموذجاً)، ص35 وما بعدها. ولا أرى ضرورة لإعادة كتابتها هنا، فمن أراد الاطلاع عليها فهي موجودة على الشبكة العنكبوتية، ومنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 84، 2013م).

ولــو كنــتُ أرضــى بمــا القــومُ فيــــهِ لمــا كــنــــتُ عــن نَيْــلِــهِ أدفــعُ

ويؤكّد في مقطوعة أخرى بخل المماليك، ويركّز على صنف منهم، وهم ذوو العيون الضيّقة، ولعلهم الذين ينتمون إلى أصول مغوليّة منهم، ويوظّف هذه السّمة الخَلقيّة ليصنع منها تورية تعبّر عن طمعهم وبخلهم، ولذا يدعو أبناء عصره إلى تجنّب طرق أبوابهم، وليتوجهوا بدلاً منها إلى الله، جلّ وعلا، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص277)

سَــلِ اللّــهَ ربّــكَ مــنْ فَضْــلِــــــــهِ إذا عَرَضــــتْ حاجــــةٌ مُــقــلِــقــــــــهْ

ولا تــســـألِ الــتّــرُكَ فــي حــاجــــةٍ فأعــيــنُــهُــــــمْ أعيــــنٌ ضــيــقــــــــهْ

ويبدو ابن الوردي عروبيّاً في بعض أشعاره، حين صوّر سوء معاملة المماليك للجنس العربيّ، ويعجب منهم وهم العبيد في الأصل، وقد تطاولوا في الحكم على أحرار العرب، ولكنه يرى أن ذلك عقوبة للعرب على تفريطهم في جنب الله، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص403)

تعالـــى اللــهُ عــن جَــوْرٍ وظُــلــــــمٍ وجــلَّ عــن العقــابِ بغيــرِ ذنــــــبِ

فمـــا عبــثــاً رأيـــتُ عبيـــدَ تـــــرُكٍ مملّــكــةً علــى أحـــرارِ عُـــــربِ

هـ. النّقد الإداريّ

عبّر الشاعر زين الدّين بن الورديّ عن موقفه من الإدارة المملوكيّة لمؤسسات الدّولة المختلفة، ووقف في شعره على صفات القائمين عليها، وعلى طريقه تعيينهم، ومظاهر فسادهم، واختار لهم صوراً تعبّر عن حالهم، وتكشف عن شرهم وطمعهم، وسوء سيرتهم وأخلاقهم، وأرجع ذلك إلى غير سبب، فمنها السّماح للجاهلين، وعديمي الأمانة بالوصول إلى مناصب، لا يملكون مؤهلات لها، وعبّر عن رفضه لذلك، فقال: (ابن الوردي، 1986م، ص333)

والجاهـــلُ الخائـــنُ فـــي منْصِـــبٍ عـــالٍ وأرضـــــى لا وربّ الــعُـــــلا

ومن أسباب الفساد الإداريّ التي وقف عليها الشاعر ذلك الرّشوة التي كانوا يدفعونها لبعض المسؤولين في الدّولة، ومن أغرب الرُّشى التي تحدّث عنها الحشيش، إذا صوّر أحد من عُيّنوا بهذه الطريقة، وأضحى رئيساً، وهو قبيح الأخلاق، فقال ساخراً منه، ومن منصبه: (ابن الورديّ، 1986م، ص256)

فــي حشيــشٍ قــدْ ترقّــــــــــى بالرُّشـــــى وهـــــو خسيـــــسُ

وإذا صـــــــارَ رئــيســـــــــاً فالخُصـــــــى عُضـــــوٌ رئـــــيسُ

ويبيّن ابن الوردي نتائج هذا الفساد الإداريّ، فعبّر على لسان أحد الشّهودِ عن صعوبة الرّزق في زمانه في مكان عمله، فصوّر استحواذ الفاسدين عليه، وأنّهم كالشّواهين بل الذّئاب، يمسكون الأموال بأظافرهم وأنيابهم، فلا يحصل غيرهم على شيء منها إلاّ بشقّ الأنفس، كما يبدو في قوله: (ابن الورديّ، 1986م، ص242)

وعاشـــرتُ فـــي المكتـــــبِ صنفيـــــنِ شبـــــهَ الشّواهيـــــنِ وشبـــــهَ الذّئـــــابِ
أيُّ حيـــــــاةٍ لامـــــــرئ رزقُـــــــهُ يأخُـــذُهُ مـــنْ بيـــنِ ظُفـــرٍ ونـــــابِ

وهذا الأمر انعكس عليه شخصيّاً، فصوّر صعوبة رزقه، ومشقّة الحصول عليه، في حين يتنعم به من هم أدنى منه مكانة، واتّصفوا بسوء السّيرة والأخلاق والفساد، يقول مقابلاً بين حالته، وحال هؤلاء: (ابن الوردي، 1986م، الديوان، ص233)

إنْ لُمـــــتُ حظّـــــي فـــلا تَلُمنـــــي فإنّ لـومـــــي لـــه بـــحـــــــــــــقِّ
للضـــــدِّ رزقٌ بـــــلا حســـــــــابٍ ولـــــي حســـــابٌ بغيـــــــــــرِ رزقِ

ولعلّ أبرز وظيفة وقف عليها ابن الورديّ، وكشف عن جوانب مختلفة من فسادها، وتلاعب القائمين عليها بها هي منصب القضاء (انظر رائد عبد الرحيم، 2013م، ص72-73)، وذلك راجع لخبرته فيه، إذ تولاه غير مرّة ثم تركه، ورفض العودة إليه لما فيه من فساد، ومن أبرز مظاهره أنّ من تولّوه كانوا جهّالاً، سيئي السيرة والأخلاق، ويتجلّى ذلك في قوله مصوّراً وصول احد كتّاب الضرائب وقد صار قاضياً: (ابن الوردي، 1986م، ص222)

كاتـــبُ مَكْـــسٍ قلّـــدوه القَضـــــــا لا زالَ فـــــي طـــــردٍ وفـــــي عكـــــسِ
بِمَـــــــدّةٍ مـــن قَلَـــتـــمٍ واحـــــــدٍ تكتـــــبُ في الشَّـــــرعِ وفـــــي المَكْـــــسِ

ولا شكّ أنّ الطّرد والعكس وإن كانت تحمل مصطلحات أصوليّة تدلّ على الشيء ونقيضه إلاّ أنّ الشاعر استخدمه ليبيّن أنّ القاضيَ مهنته الأساسية في القضاء تحقيق العدل، ولكنّ هذا الذي عُيّن بالرّشوة فعل عكسها بما يوقعه على الناس من ظلم، وضرائب باهظة، وسوء سيرة بينهم.

وركّز ابن الوردي على أن الوصول إلى هذا المنصب بالرّشوة كان من أبرز أسباب فسادها، وتدهور حالها، (انظر مجتبى وآخرون، 2016، ص101) وفي الحقيقة ليس ابن الورديّ وحده من صرّح بهذا الأمر، وعبّر عن امتعاضه منه، بل شاركه في ذلك كثير من مؤرّخي عصره[1]، وبخاصة بعد أن بدأت هذه المؤسسة تفقد هيبتها بعد منتصف القرن الثامن الهجري أو قريب من هذا التاريخ، وبدأت الانهيارات "متمثلة بالرّشوة، وتغليب المصلحة الخاصة على العامّة، وجعل القضاء أداة بيد الحكّام المماليك، فضلاً عن انتشار شهّاد الزّور الذين كانوا يُعيّنون في القضاء بناء على وساطة من الأمراء المماليك ما جعلهم يتلاعبون بالأحكام القضائية بما يتلاءم مع مصالحهم

(1) للتوسّع في هذا الموضوع، انظر البطّاوي، حسن، أهل العمامة في مصر في العصر المملوكيّ، 2007م، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة. عبد المقصود، أحمد، مفاسد القضاء المملوكيّ، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، 2022م، العدد 84، ص501-524. عبد الله، سحر، مؤسسة القضاء في العصر المملوكي (دراسة تاريخية)، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، قسم التاريخ، د.ت، دراسة منشورة على الشبكة العنكبوتية.

الضّيّقة على حساب الحقّ والعدل" (عبد الله، سحر، د.ت، ص2، وانظر 4، 5، 9، 10، وانظر عبد المقصود، أحمد، 2022م، ص7، 10، 12، 13،19، البطّاوي، 2007م، ص50)، ووقد استحدث في الحقبة الثّانية من دولة المماليك ديوان البذل، ويقصد به البرطيل أي الرُّشى (ابن تغري بردي، 1993م، 292/11)، وبلغت شكواهم الأمر حتى قال ابن كثير: إن "الرّتب صارت مغدوقة بالباذل لا بالفاضل" (ابن كثير، 1992م، 14-165-166)

يتحدّث ابن الوردي عن تجربته الخاصّة في هذا الموضوع، حين بيّن أن سبب عزله من القضاء كان رفضه دفع الرّشوة، ويوظّف مصطلحات علمي النّحو والصّرف، ليبيّن أن ما في قوله: "ما أعطي" تفيد الكفّ عن العمل، وليصنع تورية دالة على النتيجة من رفضه، وهي عزله من المنصب، واستبداله بمن يدفع، يقول: (ابن الوردي 1986م، ص431)

عزلـــوكَ لمّـــا قُلـــتَ: مـــا أُعطـــي وولّـــوا مَـــنْ بَـــذَلْ

أومـــا عَلِمـــتَ بـــأنّ مـــا صـــرفٌ يكـــفُ عـــن العَمَـــلْ

ويبدو أنّ بعض النّاس كان يطلب إليه أن يفعل مثل غيره، ويدفع الذّهب رشوة لتولي قضاء حلب، ولكنّه يردّ عليهم أن ما يطلبوه منه بمثابة الحطب الذي سيتحوّل إلى نار تحرقه في إشارة إلى حرمة فعله، والمصير الذي سيلاقيه في الأخرة، كما يبدو في قوله: (ابن الوردي، 1986م، ص370)

قيـلَ لـــي برطـــلِ الذّهـــبْ بتولّـــي قضـــا حلـــبْ

كيـفَ وهـمْ يـحـرقـونـنـي وأنـا أشتـري الحطـبْ

ويلجأ ابن الورديّ إلى أسلوب التوريّة، ليتلاعب بلفظة ذهب، ليوهم القارئ بأن المعنى القريب لها المعدن المعروف لوجود قرينة له وهو الفضّة، ولكنّه يقصد بتوظيفها أنّ مصيرَ كلّ من دفع الرّشوة ليصل إلى منصب القضاء وغيره هو الإقصاء والعزل، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص430)

فـــلان لا تعجـــبْ إذا عُزلـــتَ واعـــرفْ مـــا السبـــبْ

فمـــا رأينـــا مَـــنْ وَلـــي بـفـضّـــةٍ إلاّ ذَهَـــبْ

ويستمرّ ابن الوردي في تصوير فساد بعض قضاة عصره، وتلاعبهم بالفتاوى، حتى إنّ بعضهم كان يعظّم المال حتى يفتي بأن القليل منه عظيم، ويطلب إلى قاصديه ألا يلجؤوا إليه، لأنّه لا يعين غيره، ولا يقدّم لهم يد العون، يقول: (ابن الوردي، 1986م، ص 259)

لا تقصـــدِ القاضـــي إذا ادبَـــرَتْ دنيـــاكَ واســـألْ مـــنْ جـــوادٍ كريـــمْ

كيـــفَ تُرجّـــي الـــرّزقَ مـــنْ عنـــدِ مَـــنْ يُفتـــي بـــأنَ الفِلـــسَ مـــالٌ عظيـــمْ

ويخصّص الشاعر قصيدة كاملة ليعبّر فيها عن حنقه على متولّي القضاء في عصره، الذين جعلوه مكاناً للنهب والسلب، وطلب العلا والجاه، وهذا ما دفعه إلى تركه لهم، لأنهم يوغلون في حرام، وسيكون مصيرهم العقاب الأليم في الآخرة، ويتناص مع قوله تعالى: (**فَكيفَ تَتقون وإنْ كَفَرْتُمْ يوماً يجعلُ الوُلدانَ شيباً**) (سورة المزمل، آية 17) ليبين لهم أهوال ذلك اليوم، ويكثر من استخدام فعل الأمر، ليحذرهم، ويهددهم عاقبة سلوكهم، ويبدو مستلهماً بعض معاني قصيدية لقيط بن يعمر الإيادي التي خاطب فيها قومه إياداً، وحذّرهم الفرس، وممّا استلهمه ابن الورديّ قول لقيط: (لقيط بن يعمر، د.ت، ص 46)

قومـــوا قيامـــاً علـــى أمشـــاطِ أرجُلِكُـــمْ ثـــمّ افزعـــوا قد ينـــالُ الأمـــرَ مَنْ فزعـــا

يقول ابن الورديّ: (ابن الورديّ، 1986م، ص365)

تركـــتُ لكـــمْ عِـــزَّ القضـــاءِ وجاهَـــهُ وأبعـــدتُ عنـــهُ خائفـــاً أترقّـــبُ

فقوموا علـــى ساقـــي حديـــدٍ وشمّـــروا لنيـــلِ عـــلاءٍ واهجـــروا النّـــومَ واطلبـــوا

وميـــلـــوا وجولوا واحكمـــوا وتخـــوّلـــوا وصولـــوا وطولـــوا وانبـــذوا الزّهـــدَ وانهبـــوا

ستعلـــمُ نفـــسٌ أيَّ حِمـــلٍ تحمّلَـــتْ ليوم أســـى مِـــنْ هولِـــهِ الطّفـــلُ أشيـــبُ

ويستمر الشاعر في التّشنيع على من انتظموا في سلك القضاء في عصره، ويصوّر زهده فيه، وأنّه أضحى حرّاً بعد أن كان عبداً له، وأنّه تركه لمن يسعون إلى تحصيله، ويبذلون الغالي والنفيس في ذلك، ويبيّن أنهم قد وقعوا في إثمه بعد أن أضحوا أثرياء، واتّصفوا بالرّياء. ويصبّ جام غضبه على قاضي القضاة يومذاك، ويبيّن أنّه لقب لا يليق به، ويبدو أنّه يقصد شخصاً بعينه لم يصرّح باسمه ترفّعاً عن الهجاء، ويضمّن عجز بيت للشّاعر عامر الطائي، وقيل لمنقذ بن مرّة الكنانيّ، وهو (هذا وجدكم الهوان بعينكم) (البحتري، 2007م، ص130)، يقول ابن الورديّ: (ابن الورديّ، 1986م، ص366)

فيـــا لائمـــاً قد لامَ فـــي تـــَركِ منصـــبٍ خُطبـــتُ لـــهُ، تركـــي لذلـــك منصـــبُ

كـــذا سنـــّةُ الدنـــا إذا تَـــرَكَ الفتـــى الـــ مناصـــبَ جاءتـــهُ المناصـــبُ تخطـــبُ

أأرجـــعُ بعـــدّ العتـــقِ فـــي الـــرّقّ ثانيـــاً "فـــلا أمّ لـــي إنْ كـــانَ ذاكَ ولا أبُ"

تركـــتُ حســـودي والولايـــاتُ همُّـــهُ يجـاهـــدُ فـــي تحصيلهـــنَّ ويـــذأبُ

ومـــا جهلـــتْ نفســـي المعالـــي وطيبَهـــا ولكـــنْ رأتْ أنَّ السّـــلامـــةَ أطـــيـــبُ

ورحتُ خفيفَ الظّهرِ عـــنْ مِنّـــةِ امـــرئٍ تهتّـــكَ بالآثـــامِ وهـــو مُحجّـــبُ

يُقـــالُ لـــه قاضـــي القضـــاةِ تَعدّيـــاً وظُلماً وهـــذا القـــولُ للـــهِ أوجَـــبُ

ولـــو أنّنـــي أرضـــى الهجـــاءَ ذكرتُـــهُ صريحـــاً ولكـــنّ الكنايـــةَ أهيـــبُ

تلـــبّـــسَ أثـــوابَ الرّيـــاءِ تَصنُّعـــاً ليغســـلَ عنـــهُ الـــذمَّ والطّبـــعُ أغلـــبُ

وشمل نقده وسخريته بعض خطباء عصره الذي تبدو عليه ملامح الفلاح والتّقوى، ولكنّه في حقيقته، لا يبدو من المتطهرين، ويحب المال حبّاً جمّاً، ويجمعها في الحرام، وقد وظّف الشاعر الجناس بين لفظتي ماء ومال لينفي عنه صفة الصّلاح، وليبين طمعه، وسوء سيرته، يقول: (ابن الورديّ، 1986م، ص386).

وخـــطـــيـــبٍ تَـظُـنُّـــــهُ فـــائـــزاً وهـــــو هالـــــكْ

فهـــو فـــي المـــاء ناســـكٌ وهـــو فـــي المـــالِ فاتـــكُ

خاتمة

بعد هذه الجولة في شعر زين الدين ابن الوردي، يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- حفل شعر زين الدّين ابن الوردي بأشعار نقد فيها المجتمع، والسياسة، والإدارة في العهد المملوكيّ الأوّل، أو في الحقبة الزمنية التي عاشها فيها، وكانت صورة عن تجربته الشخصية، وما رآه في مجتمعه، وكان لكلّ اتّجاه مظاهره المختلفة.
- انتقد الشاعر مجتمعه وساكنيه في العصر المملوكيّ الأوّل، وعبّر في شعره عن مظاهر مختلفة للسلوك المجتمعي، ومنها حال العلماء فيه، فصّور ما يعانونه من تهميش اجتماعيّ، وبؤس، وفقر، وإهمال، وقدّم صورة لرفعة الجاهلين عليهم، وسعة أرزاقهم، وتفضيلهم لدي الأغنياء الذين هاجمهم، ووسمهم بالجهل، والبخل. وبلغ به الأمر أن دعا إلى ترك العلوم التي لم يعد لها قيمة في أذهان الناس، ولا تعطي صاحبها مكانة لديهم.
- ونقد ابن الورديّ بعض صداقات عصره، وبيّن تلّونها حسب المنفعة والمصلحة، حتى الودّ مرتهناً بها، وشنّ جام غضبه على من يفشون سرّ الصديق.
- ووقف الشاعر في نقده على بعض طوائف مجتمعه المملوكيّ، وبخاصة بعض أطباء اليهود، والنصارى الذي كانوا يشتركون في افتعال الحرائق في مصر، وتشفّى ببعض الشيعة المغالين بعد موتهم، لتجرُّئهم على شتم الصحابة، رضوان الله عليهم.
- وعرض الشاعر بعض الأخلاق السلبية التي انتشرت في مجتمعه، ونقد من يتحلّون بها، ويبدو أنّ بعضها كان من واقع تجربته الخاصة فيه، ومنها البخل، والحسد، والحقد، والنميمة، واللّواط، وتعاطي الحشيش، والخمر، والتكسّب بالشعر.
- ونقد ابن الورديّ الوضع السياسيّ في عصره، وبخاصة في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبعده بقليل، ووقف على بعض مفاسده، وسوء أخلاق أربابه، فبيّن ظلمهم، وجورهم، وبطشهم، واستعلاءهم، وما كانوا يفعلونه بالنّاس من مصادرة للأموال، وإهمال للعلماء والفضلاء والأدباء، وتقريبهم الجهّال والمنافقين، وكشف عن أطماعهم في الحكم، وتنافسهم فيه، وانتقد تولّي الأطفال منهم الحكم، وكثرة تغيّر النوّاب في حلب وغيرها، وعدّد

أسماء بعضهم الذين اشتهروا بعسفهم، وسوء سيرتهم، ووصف سوء أخلاقهم، وتعاطيهم الرّشوة، وتجبّرهم بالجنس العربيّ، وعدّ ذلك من مساوئ الأيام، وأنّه مؤذن بزوال دولتهم.

- ونال الجانب الإداري في الدّولة المملوكية حظّاً من لسان ابن الورديّ، فصوّر في أشعاره مفاسده، وسوء سيرة بعض موظفيه، فوقف على صفاتهم، وانتقد طريقة تعيينهم بالرّشوة، وبيّن أثر ذلك على وظائفهم، فكان بعضهم غير مؤهل لها، دفع لها لينهب الأموال، ويستحوذ عليها، ويظلم الخلق، ويتركهم في ضيق، وبؤس، وضنك. وركّز الشّاعر على منصب القضاء في عصره، ونقل تجربته فيه إلى المتلقين، فبيّن أن الرّشوة كانت أساساً في الوصول إليه، وليس العلم والأخلاق، وسخر من القائمين عليه، وصوّر جهلهم، وطمعهم، وتهاونهم في الأحكام، وتجييرهم هذا المنصب لمصالحهم الشّخصيّة، وبيّن أنّ سبب تركه إيّاه هو رفضه دفع الرّشوة، والتّماهي مع مصالح أرباب الدّول، وهو في كل ذلك يصف خطورة الوضع فيه على الإنسان دنيا وآخرة. وشمل نقده بعض خطباء عصره، واتخاذهم الدّين وسيلة لتحقيق منفعتهم الدنيويّة.

- وقد وظّف ابن الورديّ أساليب متنوّعة للتّعبير عن معانيه، فأكثر من التّصوير الفنيّ، والتّناصّ مع القرآن الكريم، والشّعر العربيّ في عصوره المختلفة، وبخاصّة العصر الجاهلي والعباسيّ، ووظّف فنون البديع اللّفظية والمعنويّة، وبخاصّة الجناس والتّورية، ووظّف مصطلحات العلوم المختلفة، وبخاصة علم الفقه والنّحو والصّرف، ولجأ إلى أساليب الحوار، والمفارقة، والسّخرية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإياديّ، لقيط بن يعمر بن خارجة. (د.ت)، *ديوان لقيط بن يعمر الإياديّ، رواية أبي المنذر هشام بن محمّد السائب الكلبيّ*، تحقيق وتعليق وتقديم: خليل إبراهيم العطيّة، وزارة الإعلام، مديرية الثقفة العامّة.
- البحتريّ، أبو عبادة الوليد بن عبيد. (1428هـ-2007م)، *الحماسة*، تحقيق: محمّد حوّر، وأحمد محمّد عبيد، ط1، هيئة أبو ظبي للثّقافة والتّراث، المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي، الإمارات العربيّة المتّحدة.
- البطذاوي، حسن احمد عبد الجليل. (2007م)، *أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك*، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة، مصر.
- ابن تغري برديّ. (1413هـ-1993م)، *النّجوم الزّاهرة، في ملوك مصر والقاهرة*، قدّم له وعلّق عليه: محمّد حسين شمس الدّين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- ابن حجر العسقلانيّ، شهاب الدّين أحمد بن عليّ. (1418هـ-1997م)، *الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة*، ضبطه وصحّحه: الشيخ عبد الوارث محمّد علي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- السّبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب. (1906م)، *طبقات الشافعيّة الكبرى*، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- (1407هـ- 1986م)، *معيد النّعم ومبيد النّقم*، ط1، مؤسسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، لبنان.
- السيوطيّ، جلال الدّين عبد الرحمن (1979م)، *بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة*، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- ابن شاهين الظاهريّ، غرس الدّين خليل، (1892م)، *كتاب زبد كشف الممالك وبيان الطّرق والمسالك*، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، د.ط، طبع في مدينة باريس المحروسة بالمطبعة الجمهوريّة.
- الصفديّ، صلاح الدين خليل بن أيبك. (1998م)، *أعيان العصر واعوان النصر أعيان العصر وأعوان النصر*، تحقيق: نبيل أبو عمشة وآخرين، تقديم: مازن عبد القادر، ط1، دار الفكر المعصر، بيروت، لبنان.
- (1420هـ-2000م)، *كتاب الوافي بالوفيات*، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان.
- أبو طربوش، مها احمد نايف (2013م)، *توظيف الموروث في شعر زين الدين بن الورديّ (ت749هـ)*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
- عبد الرحيم، رائد. (1434هـ-2013م)، *صور من النقد السياسيّ في أدب العصر المملوكيّ الأول: موقف السلطة من المثقّف انموذجاً*، مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ، العدد 84، السنة السابعة والثلاثون.
- عبد الله، سحر. *مؤسسة القضاء في العصر المملوكي (دراسة تاريخية)*، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، قسم التاريخ، د.ت، دراسة منشورة على الشّبكة العنكبوتية. https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM-874401-
- عبد المقصود، احمد محمّد أحمد. (2022م). مفاسد في القضاء المملوكيّ رصدها ابن خلدون، *المجلّة العلمية لكلية الآداب، العدد 84*، جامعة أسيوط، صفحات 501-524.
- ابن الغزّي، شمس الدين أبو المعالي محمّد بن عبد الرحمن. (1990م)، *ديوان الإسلام*، تحقيق: سيّد كسروي حسن، (ب.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن احمد بن محمّد. (1978م)، *طبقات الشافعيّة*، تصحيح وتعليق: الحافظ عبد العليم خان، رتّب فهارسه: عبد الله انيس الطبّاع، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- الكتبي، محمّد بن شاكر. (1974م)، *فوات الوفيات والذيل عليها*، تحقيق: إحسان عبّاس، (ب.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ابن كثير، *أبو الفداء الحافظ الدّمشقيّ*. (1413هـ-1992م)، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، ط1، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- كريمي، مجتبى. وخاقاني، محمّد أصفهاني. وعابد، مهدي جزيني. (2016م-1395هـ)، ابن الوردي وموقفه من المجتمع المملوكي في الشّام، *مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية، 39*، ص87-101.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل. (2003م)، *لسان العرب*، مراجعة وتصحيح نخبة من السّادة الأساتذة المتخصصين، (د.ط)، دار الحديث، القاهرو، مصر.
- ابن الورديّ، زين الدّين عمر بن المظفّر. (1970م)، *تتمّة المختصر في أخبار البشر*، تحقيق: رفعت البدراويّ، ط1، لبنان، بيروت، دار المعرفة.
- (1407هـ-1986)، *ديوان ابن الورديّ*، حقّقه وعلّق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، ط1، دار القلم، الكويت.

Sources & References

- The Holy Quran.
- Abd al-Maqsood, Ahmed Muhammad Ahmed. (2022 AD), “Flaws in the Mamluk Judiciary as Observed by Ibn Khaldun”, *Scientific Journal of the College of Arts, Assiut University, (84)*, 501-524.
- Abdel Raheem, Raed. (1434 AH - 2013 AD). “Images of Political Critique in the Literature of the Early Mamluk Era: The Authority's Attitude towards the Intellectual as a Model”, *Journal of the Jordan Academy of Arabic Language, (84)*, 37th year.
- Abdullah, Sahar. *The Establishment of the Judiciary in the Mamluk Era (A Historical Study)*, Mustansiriya University, College of Education, Department of History, n.d., published study available online.

- Abu Tarboush, Maha Ahmed Naif. (2013 AD). *Utilizing Heritage in the Poetry of Zain al-Din Ibn al-Wardi (749 AH),* unpublished Master's thesis, An-Najah National University, Nablus, Palestine.
- Al-Batawi, Hassan Ahmed Abdel Jalil. (2007 AD). *Ahl al-Imamah fi Misr 'Asr Sultans al-Mamluk*, 1st edition, Ain for Human and Social Studies and Research, Cairo, Egypt.
- Al-Buhtri, Abu Ubaida Al-Walid bin Ubaid. (1428 AH - 2007 AD). *Al-Hamasah*, edited by Muhammad Hawwar and Ahmed Muhammad Ubaid, 1st edition, Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage, Cultural Complex, Abu Dhabi, United Arab Emirates.
- Al-Iyadi, Luqayt bin Ya'mar bin Kharijah. (n.d.). Diwan of Luqayt bin Ya'mar Al-Iyadi, narrated by Abu al-Mundhir Hisham bin Muhammad Al-Sa'ib Al-Kalbi, edited, annotated, and introduced by Khalil Ibrahim Al-Attiyah, Ministry of Information, General Culture Directorate.
- Al-Kutubi, Muhammad bin Shakir. (1974 AD). *Fawat al-Wafiyyat wa al-Dhayl 'Alayha*, edited by Ihsan Abbas, (N.edt), Dar Sader, Beirut, Lebanon.
- Al-Sabki, Taj al-Din Abu Nasr Abdul Wahhab. (1906 AD). *Tabaqat al-Shafi'iyyah al-Kubra*, 2nd edition, Dar al-Ma'arifah for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon.
- (1407 AH - 1986 AD), *Mu'id al-Ni'am wa Mubid al-Niqam*, 1st edition, Cultural Books Foundation, Beirut, Lebanon.
- Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Ayyub. (1998 AD), *A'yan al-'Asr wa A'wan al-Nasr*, edited by Nabil Abu Amsha and others, introduction by Mazen Abdul Qadir, 1st edition, Dar al-Fikr al-Mu'asir, Beirut, Lebanon.
- (1420 AH - 2000 AD). *Kitab al-Wafi bi al-Wafayat*, edited by Ahmed al-Arnaut and Turki Mustafa, 1st edition, Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut, Lebanon.

- Al-Suyuti, Jalal al-Din Abdul Rahman. (1979 AD). *Bughyat al-Wu'at fi Tabaqat al-Lughawiyyin wa al-Nuha*, edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, 2nd edition, Dar al-Fikr, Damascus, Syria.
- Ibn al-Ghazzi, Shams al-Din Abu al-Ma'ali Muhammad bin Abdul Rahman. (1990 AD). *Diwan al-Islam*, edited by Sayyid Kasravi Hasan, (N.edt), Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon.
- Ibn al-Wardi, Zain al-Din Umar bin al-Muzaffar: (1407 AH - 1986 AD). *Diwan Ibn al-Wardi*, edited, commented on it, and collected by Ahmed Fawzi Al-Hayb, 1st edition, Dar al-Qalam, Kuwait.
- (1970 AD). *Tatimmah al-Mukhtasar fi Akhbar al-Bashar*, edited by Rafat al-Badrawi, 1st edition, Dar al-Ma'arif, Beirut, Lebanon.
- Ibn Hajar al-Asqalani, Shihab al-Din Ahmad bin Ali (1418 AH - 1997 AD), *Al-Durar al-Kaminnah fi A'yan al-Mi'ah al-Thaminah*, edited and authenticated by Sheikh Abdul Warith Muhammad Ali, 1st edition, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon.
- Ibn Kathir, Abu al-Fida' al-Hafiz al-Dimashqi. (1413 AH - 1992 AD). edited by Ahmad Abdul Wahhab Fatah, 1st edition, Dar al-Hadith, Cairo, Egypt.
- Ibn Mandhur, Jamal al-Din Abu al-Fadl. (2003 AD). *Lisan al-Arab*. revised and corrected by a select group of specialized scholars, (n.d.), Dar al-Hadith, Cairo, Egypt.
- Ibn Qadi Shahba, Abu Bakr bin Ahmed bin Muhammad (1978 AD). *Tabaqat al-Shafi'iyyah*, edited and annotated by Al-Hafiz Abdul Aliim Khan, indices arranged by Abdullah Anis al-Tibba, 1st edition, Alam al-Kitab, Beirut, Lebanon.
- Ibn Shahin al-Zahiri, Gharis al-Din Khalil (1892 AD). *Kitab Zabad Kashf al-Mamalik wa Bayan al-Turuq wa al-Masalik*, edited by Paulus Rauwis, P.H., printed in the city of Paris, at the Republican Press.

– Ibn Taghri Birdi. (1413 AH - 1993 AD). *Al-Nujum al-Zahirah fi Muluk Misr wa al-Qahira*, introduced and annotated by Muhammad Hussein Shams al-Din, 1st edition, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon.